الباب العاشر

في مواقف الكرم

استعطاف:

وهذا موقف من مواقف الكرام، يروى أن أمير المؤمنين المعتصم بالله غضب على الحسين بن الضحاك، في شيء جرى منه،وقال المعتصم: أُأَدبنه، وحجبني، وكتب إليه يقول:

غضب الإمام أشد من أدبه ... وقد استجرت وعذت من غضبه
أصبحت معتصماً بمعتصم ... أثنى عليه الله في كتبه
لا والذي لم يبق لي سبباً ... أرجو النجاة به سوى سببه
مالي شفيع غير رحمته ... ولكل من أشفى على عطبه
إلا كريم طباعه وبه ... أرجو الذي أرجوه في نسبه

فلما قرئت عليه، التفت إلى الواثق، وقال: بمثل هذا الكلام يستعطف الكرام، ما هو إلا أن سمعت أبيات الحسين بن الضحاك هذه حتى زال ما في نفسي عليه، وتأكدت من إخلاصه.

فقال الواثق: هو حقيق أن يهب له أمير المؤمنين ذنبه ويتجاوز عنه، فرضي عني وأمر بإحضاري، وقربني، وأنعم عليّ بسابغ نعمه.

قال الصولي: فحدثني الحسين بن يحيى، أن هذه الأبيات إنما كتب بها إلى المعتصم، لأنه بلغه عنه أنه مدح العباس بن المأمون، وتمنى له الخلافة، فطلب فاستتر، وكتب بهذه الأبيات إلى المعتصم على يدي الواثق، فأوصلها وشفع له، فرضِي عنه وأمنه فظهر ثم استدعاه، فدخل عليه وهجا العباس بن المأمون فقال:

خل اللعين وما كسب ... لازال منقطع السبب
يا عرة الثقلين لا ... دينار وعيت ولا حسب
حسد الإمام مكانه ... جهلاً هداك على العطب
وأبوك قدمه لها ... لما تخير وانتخب
ما تستطيع سوى التنفس والتجرع للكرب
لا زلت عند أبيك منتقص المروءة والأدب

من مواقف النـــبل:

فيحكى أن الفضل بن يحيي بن خالد البرمكي، كان جواداً مشهوراً، فلامه البعض ، فقالوا له : قد أفسدت جودك ببرك، فقال:

والله ما لي حيلة في النزع عنه، وما كان سبب حصوله إلا أنني حملت نفسي عليه ، لما رأيت من عمارة بن حمزة بن ميمون، وعمارة هذا يعد من كبار العمال في الدولة العباسية، وكان كاتباً شاعراً جواداً داهية،وكان وافر الحرمة عند السفاح والمنصور والمهدي، جمعت له ولاية البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين، وأخباره في الكرم عجيبة، وأخباره في التيه أعجب توفي سنة ١٩٩هجرية.

قال الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، لما رأيت من عمارة بن حمزة بن ميمون من الكرم والتكبر،تشبهت به، فصار طبعاً لي ولا أقدر على الإقلاع عنه.

وذلك أن أبي كان يضمن فارس من المهدي، فحملت عليه ألف ألف درهم أي عشرة ملايين درهم، وكان المهدي قد ساء رأيه فيه، فحرك ذلك ما كان في نفسه، وأمر أبا عون،(عبد الملك بن يزيد الخراساني) وهو من كبار الدعاة، وقدمائهم للعباسيين، وكان من قادة أبي مسلم الخراساني، واشترك في الحروب التي رافقت تأسيس الدولة العباسية، ولما استقر الأمر للعباسيين ولّاه السفاح مصر، ثم بعثه المنصور إلى خراسان، وسيره المهدي لحرب المقنع ، ثم استعمله على خراسان، ثم عزله، توفي حوالي سنة ١٦٩هـ.

وأمر المهدي أبا عون أن يأخذ أبي فيطالبه بالمال، فإن غربت الشمس في يومه ذاك ولم يصحح جميعه، أو بقي درهم منه أتاه برأسه من غير أن يستأذنه أو يراجعه.

قال: فأخذه أبو عون فاستدعاني وقال: يا بنيّ، قد ترى ما نحن فيه فلا تدعوا في منازلكم شيئاً إلا أحضرتموه.

قال: فجمعنا كل ما في منازلنا، من صامت وناطق، فلم يبلغ عشر المال ، فقال: يا بنيّ إن كانت لنا حيلة في الحياة فمن قبل عمارة بن حمزة،وإلا فأنا مقتول العشية، فاذهب إليه وأخبره بالأمر.

فمضيت إلى بابه فاستؤذن لي عليه، فأذن فدخلت، وهو مضطجع قد غاص في فراش له، ما كاد يبين إلا وجهه، فو الله ما تحرك ولا غير من حاله، وسلمت عليه،

فأومأ إليّ بالجلوس فجلست بعيداً منه، فلم يعرني أي اهتمام، ولا التفت إليّ، فساءني ذلك فانكَسَرَت نفسي.

وقلت: أي خير عند من هذا لقاؤه، وهذا عنوان أمره، فأمسكت لا أتكلم بشيء مطرقاً منكساً رأسي إلى الأرض، مفكراً أأتكلم بحاجتي أم أقوم منصرفاً، ثم تشجعت فاندفعت في الكلام.

فقصصت عليه القصة، فو الله ما أجابني بحرف، أكثر من قوله: إمض فإن الله يكفيك وهو السميع العليم.

فقمت متحيراً أجر رجلي، لا أشك في اليأس وسوء الخيبة إذ تصرفه، وكلامه زادني يأساً، وقلت: إن عدت إلى أبي بهذا الجواب مات غمًّا وكمداً قبل أن تضرب عنقه.

فتوقفت ساعة لا أدري ما أفعل، والوقت يمر، ثم قلت: على كل حال ليس لي حيلة إلا المضي إليه فأونسه، فإن كانت له حيلة أخرى شرعنا فيها قبل انصرام النهار، والإبطاء ليس في صالحنا.

فرجعت إلى أبي لأخبره بالأمر وما حصل لي من عمارة بن حمزة، فلما وصلت الدار وجدت على الباب بغالاً كثيرة محملة ، فقلت لمن معها: من أنتم وما قصة وجودكم وهذه البغال؟.

قالوا: أنفذنا عمارة بن حمزة إليكم بمال هذه البغال، فدخلت على أبي مسرعاً مبشّراً، فعرّفت أبي بما جرى لي عند عمارة بن حمزة والمفاجأة التي حصلت لدى وصولي إلى المنزل من وجود البغال الكثيرة. فأخذنا المال فصححناه وما صلينا صلاة العصر حتى عرف المهدي الصورة، وأفرج عن أبي، وكان ذلك سبب رضاه عنه، وصلاح نيته له.

فلما كان بعد شهر ، ورد لنا من فارس مال عظيم كثير،فقال لي أبي: يا بنيّ خذ هذا المال، وامض به إلى عمارة بن حمزة، فسلمه إياه وأشكره على موقفه العظيم وكريمه العميم.

فحملت المال على البغال ومضيت إلى دار عمارة بن حمزة، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه وهو على فراشه ، فما زادني على ما عاملني به سابقاً، ولا

نقصني، فشكرته عن أبي، ودعوت له بخير، وعرفته إحضاري المال، وسألته أن يأمر بقبضه مني.

فلما سمع كلامي غضب، وقال: أكنت صيرفيًّا لأبيك، أقرضته وأسترجع منه، فقلت: لا وحاشا لمثلك أن يفعل ذلك، ولكنك أحييته وحقنت دمه بموقفك العظيم،وطوقته ببحر جودك، وما أحبّ أن يتغنمك، فلما حصل له المال أنفذه إليك.

فقال: أما إذ رده أبوك، فقد وهبته لك، خذه وٱنصرف فقمت، وقد أعطاني ما لم يعطِ أحد أحداً.

فرجعت إلى أبي فعرفته ما جرى، فقال: لا والله ـ يا بني ـ ما تطيب لك به نفسي كله،ولكن خذ منه مائتي ألف درهم، فاستلمتها منه، هي أول مال جاءني كثيراً مجتمعاً، وهي أصل نعمتي التي أنا الآن فيها، فتعلّمت من عمارة بن حمزة الجود والكبر معاً، فصاراً لي طبعاً، فلذلك صعب عليَّ النزوع عنه.

تلك لعمري مواقف الرجال العظماء، الذين خلّد التأريخ مآثرهم ومواقفهم فتعرف الرجال بأفعالها ومواقفها، فعمارة بن حمزة وأمثاله، رجال المواقف لحل الأزمات.

أخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلم العلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات (المغنيات)، والمعازف، وشربت الخمر، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً، ومسخاً وقذفاً، وآيات تتابع كنظام بالٍ قطع سلكه فتسابع**».